

أزمة العالم الحديث

تأليف: رينيه غينون

النَّاشِر: المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية

عدد الصفحات: 159

سنة التَّسْر: 2016م.



مراجعة: رشا حسين الحاج*

يُعدُّ مؤلَّف كتاب «أزمة العالم الحديث»، رينيه غينون René Guénon (1886م - 1951م)، أو عبد الواحد يحيى - الاسم الَّذِي انتخبه عندما أسلم - رائد الدَّعوة في الرُّجوع إلى التُّراث، والتمسُّك بالمدرسة التقليديَّة في الغرب. ولقد تنوَّعت آراؤه بتنوُّع المشارب الفكريَّة التي سلكها طوال حياته، من كاثوليكيٍّ إلى غنوصيٍّ يبحث في العلوم الغربيَّة إلى مسلم سلك طريق الشاذليَّة.

استنتج غينون، من خلال استقراء البنى التحتيَّة والأسس التي اعتمدت عليها الحضارة الغربيَّة، فرضيَّة إمكانية انهيار حضارة الغرب كسائر الحضارات. فليس هناك أيُّ مُسوِّغٍ لمتابعة هكذا حضارة خاوية، والأولى التمسُّك بالتُّراث والمدرسة التقليديَّة، وعدم تلقِّي بشكلٍ سلبيٍّ الفوضى والظلام الَّذِي يبدو للحظات أنه ينتصر.

* ماجستير في التاريخ / الجامعة اللبنانيَّة

الفصل الأول: العصر المُظلم

يمكن ملاحظة خطوط الفكر الهندوسيّ حول الدورات التي شهدتها البشرية في جميع فصول الكتاب. فقد أشار غينون إلى أنّ الدورة البشرية، التي يُعطى لها اسم «المانفانتارا» في العقيدة الهندوسية، تنقسم إلى أربعة عصور، وبأننا نعيش في العصر الرابع: «الكالي يوغا»، أو «عصر الظلمة». كما أنّ تطوّر الدورة يكون بمنحى تنازليّ من الأعلى إلى الأسفل، وأنّ الانتقال من دورة إلى أخرى لا يمكن أن يكتمل إلاّ في الظلمة. فهناك اتجاهان متعارضان، أحدهما طارد والآخر جاذب، وهيمنة أحدهما على الآخر تسبق مرحلتين متكاملتين للتجلي: الابتعاد عن المبدأ والعودة إلى المبدأ.

اعتقد، تبعاً للتقليد، أنّ ما يُميّز المرحلة القصوى للدورة، هو استغلال كل ما أُهمل فيها، أو رُفض خلال المراحل السابقة. لذا، نجد في الحضارة الحديثة ما جرى رفضه من قبل الحضارات التي سبقتها. فلم يعد موجوداً غير الفلسفة والعلم «الديويين»؛ أي إنكار الفكر الحقيقي، وحصن المعرفة في المستوى الأسفل، والدراسة التجريبية والتحليلية للوقائع التي لا ترتبط بأيّ مبدأ، ومراكمة الفرضيات التي تنهار الواحدة تلو الأخرى. كما اختزال كل شيء إلى أبعاد محض إنسانية؛ ما أعطى لتلك الحضارة الطابع الماديّ.

الفصل الثاني: التّعارض بين الشرق والغرب

رأى غينون أنّه ممكن أن يكون هناك نوع من التكافؤ بين الحضارات المختلفة، إن كانت تتركز على المبادئ الأساسية نفسها؛ أي ليس بينها أيّ تعارض جوهريّ، والاختلافات ليست سوى ظاهريّة، أو سطحيّة. ولكن الحضارة الحديثة منزوعة من أيّ وسيلة للتفاهم مع الآخرين؛ لأنّها مؤسّسة في الواقع على إنكار المبادئ. فكل الحضارات التي بقيت أمانة للفكر التقليديّ، هي الحضارات الشرقيّة، والشرق الأقصى ممثّل بشكل أساس بالحضارة الصينية، والشرق الأوسط، وبالحضارة الهندوسية، والشرق الأدنى، وبالحضارة الإسلامية. أمّا الحضارة المُعادية للتقليد، في الوقت الراهن، فهي الحضارة الغربيّة الحديثة.

الفصل الثالث: المعرفة والفعل

أشار غينون- في هذا الفصل- إلى أن الاستعداد للتأمل هو أكثر انتشاراً لدى الشرقيين، كَوْن «التأمل» مُمثلاً للعقل الشرقي، أما الذي يهيمن لدى الشعوب الغربية فهو الاستعداد للفعل، أو الاتجاه الناتج من ذلك الاستعداد. ففي العصر الحديث، ابتدع الغرب نظريات تضع «الفعل» فوق كل شيء، إلى حدّ نزع أي قيمة للتأمل. ورأى غينون أنه يمكن للشرق أن يأتي لمساعدة الغرب في استعادة تقليده الخاص الذي فقد معناه، إذا ما كان الغرب راغباً في ذلك.

يشير غينون إلى أن العقائد الشرعية تؤكد أن هيمنة التأمل وتساميه على الفعل، لا يجعلها تنفي مكانة الفعل الشرعية وأهميته في نسق الأحداث الإنسانية. ولكن المبدأ الذي يستمد منه الفعل كل واقعه المحتمل ووجوده وإمكانيته نفسها، لا يمكن أن يوجد إلا في التأمل، أو المعرفة.

المعرفة الميتافيزيقية، التي هي المعرفة بامتياز، تمتلك في نفسها الثبات؛ لأنها في الجوهر تماهٍ مع موضوعها. هذا ما لا يفهمه الغربيون المحدثون، الذين لا ينظرون إلا في المعرفة العقلانية الاستدلالية؛ أي المعرفة من خلال الانعكاس. وإنهم بانخراطهم بالفعل إلى درجة نفي كل ما عداه، لا يدركون أن ذلك الفعل نفسه يتسافل؛ بسبب غياب المبدأ.

كلما انغمست البشرية في المادة أكثر، تراكمت عوامل الانقسام والتضاد وتعاضمت؛ وبالعكس، كلما ارتفعت نحو الروحانية الصافية ووعت المبادئ العامة، اقتربت من الوحدة. وأي تصور لا يتبنى سوى التغيير، أو التحول هو تصور «طبعاني» يستلزم إنكاراً قطعياً لما وراء الطبيعة؛ أي المجال الميتافيزيقي الذي هو مجال المبادئ الثابتة والخالدة.

الفصل الرابع: العلم المقدّس والعلم الدنيوي

اعتقد غينون أن المذهب الميتافيزيقي الخالص هو الذي يُشكل ما هو جوهرِي، وكل ما عداه يرتبط به تحت عنوان النتائج، أو التطبيقات لمختلف مستويات الوقائع الحادثة. وفي ما يخص العلوم، يوجد تصوّران مختلفان جذرياً، وهما: التصوّر التقليدي والتصوّر الحديث.

أشار إلى أن كلمة «فيزياء» في دلالتها الأولى والاشتقاقية تعني «علم الطبيعة»

من دون أيّ تقييد؛ إذ إنّه العلم الذي يختصّ بالقوانين الأعمّ لـ «الصّيرورة»، بما أنّ «الطّبيعة» و«الصّيرورة» هما مُترادفان في علم الفيزياء. ولكن بسبب الانحراف الذي ألحقه المحدثون بهذه الكلمة، والتجزّي، بوصفه ميزةً من ميزات العلم الحديث، أصبحت «الفيزياء» تشير إلى علم معيّن من بين العلوم الطّبيعيّة. يبيّن أنّ استحالة توحيد الكثرة نابعة من عدم ربط المعارف التفصيليّة بمبدأ أسمى، والإصرار على العمل انطلاقاً ممّا هو الأسفل؛ بينما كان من الواجب فعل العكس تماماً؛ كي نحصل على علم يحمل قيمةً تأمليّةً حقيقيّةً. والتصوّر التقليديّ يربط كل العلوم بالبادئ كما بالتطبيقات الخاصّة، وهذا الربط هو الذي لا يقبل به التصوّر الحديث.

فالتصوّر الحديث، ومن خلال رغبته في الفصل الجذري للعلوم عن أيّ مبدأ أعلى بذريعة تأمين استقلاليتها، ينزع عنها أيّ دلالة عميقة، وكل فائدة حقيقيّة من منظور المعرفة، ويحصّرها في مجال محدود. وأيّ تطوّر في ذلك المجال ليس تبخراً في المعرفة كما يُصوّر بعضهم لنفسه؛ بل يبقى سطحيّاً، لا يتضمّن سوى التحليل العقيم الذي يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية من دون التقدّم خطوة واحدة في طريق المعرفة الحقيقيّة.

اعتقد أنّ العلوم التجريبيّة المحضّة تطوّرت في الحضارة الحديثة تطوّرًا لم تعرفه باقي الحضارات؛ لأنّها علوم العالم الحسيّ، علوم المادّة، تفسح المجال للتطبيقات العمليّة الأكثر مباشرة، وتطوّرها يتناسب مع الاتّجاهات الحديثة بنوع خاص. والوهم الخاص بـ «الزّعة التجريبيّة» هو الاعتقاد بأنّ نظريّة ما يمكن البرهنة عليها من خلال الوقائع؛ بينما في الحقيقة، الوقائع نفسها يمكن تفسيرها أيضًا من خلال نظريّات عدّة، وإنّ بعض المروّجين للمنهج التجريبيّ، مثل: كلود برنار اعترفوا هم أنفسهم بأنّه ما كان بإمكانهم أن يفسّروها إلا بالاعتماد على «أفكار مسبقّة» من دونها تبقى تلك الوقائع «وقائع خام» مجردة من أيّ دلالة، ومن أيّ قيمة علميّة.

ذلك العلم الفخور به الغرب لا يُمثّل سوى مجرّد انحراف، وشبه حثالة للعلم الحقيقيّ، «العلم المقدّس»، أو «العلم التقليديّ». فيمكن أن يُنظر إلى «العلم الدينيّ» الذي هو علم المُحدثين كـ «معرفة جاهلة»، تجهل كلّ ما يتجاوزها، وكل مبدأ يمكنه أن يؤمن لها مكانة شرعيّة، ولو متواضعة، من بين مراتب المعرفة

الكاملة. فهو بانغلاقه نهائياً في مجال النسبي والمحدود، حيث أراد أن يظهر نفسه مستقلاً، حارماً نفسه من أي تواصل مع الحقيقة المتعالية ومع المعرفة العليا، ليس سوى علم عبثي ووهمي، لا يأتي من شيء ولا يؤدي إلى شيء. وبهذا المعنى، رأى غينون أن «العلم الدنيوي» قد فقد أي قيمة عقلية، إلا إذا أعطى للعقلانية كمال معناها الحقيقي، ورفض المشاركة في الخطأ «العقلاني»؛ أي تشبيه العقل المحض بالعقل، أو بكلام آخر، نفي الحدس العقلي.

الفصل الخامس: الفردانية

إن كلمة «فردانية» تعني إنكار الميتافيزيقيا بمعناها الحقيقي، وأي مبدأ أعلى من الفردية، ما يؤدي إلى اختزال الحضارة، في مجالاتها كلها، بالعناصر الإنسانية المحضة، واستبدال «المنفعة» بـ «الحقيقة». كما تعني إنكار الحدس العقلي، ووضع العقل فوق كل شيء، وجعل تلك الملكة الإنسانية المحضة والنسبية الجزء الأعلى للدكاء، أو اختزاله فيها؛ وهذا ما يشكل «العقلانية» التي أسسها ديكارت. والفردانية هي السبب الحاسم للانحطاط الزاهن للغرب، وبروز روح الجدل في كل مجال، والمُحرك للتطور الحضري للإمكانات السفلى الإنسانية.

اعتقد غينون أنه في القرن الرابع عشر كانت بداية القطيعة مع التقليد، وقد أتمت تلك القطيعة في عصر النهضة والإصلاح. وأكد أنه من الضروري التواصل مع العقل التقليدي لاستعادة الفهم المفقود. فالعقلية السائدة في الغرب تقوم على «تصغير» الدين بمنحه مكانة محدودة وضيقة قدر الإمكان، وجعله شيئاً فاقداً لأي تأثير حقيقي على باقي جوانب الحياة، وإلغائه كلياً إن أمكن. فالعقل المعادي للتقليد لا يمكنه أن يكون إلا مُعادياً للدين، وبدل أن يسعى إلى الارتقاء إلى الحقيقة، يطمح إلى إنزالها إلى مستواه. فالغرب يحتاج إلى معونة الشرق، المُمثل للعقل التقليدي، إن كان يروم العودة إلى الوعي بتقليده الخاص.

الفصل السادس: الفوضى الاجتماعية

رأى غينون أنه من خلال المبدأ الكاذب المُسمى «المساواة»، لا أحد من الناس عاد يجد المكانة التي تناسبه؛ بسبب طبيعته الخاصة؛ وهذا ما يُعبر عنه بالقول: إن الطبقات قد انقرضت؛ لأن الطبقة، بمعناها الصحيح التقليدي، هي الطبيعة الفردية

نفسها، مع مجمل الاستعدادات الخاصة التي تختزنها والتي تهَيئ الفرد لإنجاز وظيفة مُحدّدة. أمّا التمييز الاجتماعيّ الوحيد الذي تبقى هو الذي يقوم على الثروة المادّيّة.

أشار إلى أنه يحصل بموجب النزعة «التفريديّة»، ما يعدّه التقليد «اليهوديّ - المسيحيّ» كـ «سقوط» للكائنات التي انفصلت عن الوحدة البدنيّة. وإنّ الكثرة المنظور إليها من خارج مبدئها، هي، على المستوى الاجتماعيّ، الجماعة المفهومة على أنها مجرد المجموع الحسابيّ للأفراد المكوّنين لها. وإنّ الصّراعات، في المجال الاجتماعيّ، بين مختلف النزعات التي تنتمي إلى العقل الحديث، هي، في الحقيقة، بين أنواع من الفردانيّة، مُتعدّدة بحسب قابليّة الفردانيّة لذلك. واعتقد أنّ الحالة الانقساميّة والفوضويّة التي تُسببها الفردانيّة هي نتيجة حتمة لحضارة مادّيّة بالكامل.

الفصل السابع: حضارة مادّيّة

تُمثّل كلمة «المادّيّة» عقليّة منح التفوّق للأشياء التّابعة للمستوى المادّيّ وللاهتمامات التي ترتبط بها. والعلم «الدنيويّ» كلّ ليس سوى دراسة العالم المحسوس. لذا؛ أيّ علم لا يتعلّق بالماديات يتمّ إنكاره. والقوانين لا تكون علميّة إلا إذا عبّرت عن علاقات كميّة؛ فالمطالبة بإرجاع الكيف إلى الكمّ من سمات العلم الحديث للحضارة المادّيّة.

رأى غينون أنّ كلّ ما يسمّى «روحانيّة»، أو مثاليّة ليس سوى نوع من المادّيّة المنقولة. وإنّ الروحانيّة والمادّيّة، منظورًا إليهما بالمعنى الفلسفيّ، نصفان الثنائيّة الديكارتيّة، والفصل بينهما تحوّل إلى نوع من التّضادّ. ولكن «الروحانيّة»، على الرّغم من اسمها، ليس لها أيّ قاسم مشترك مع الروحيّة. لذا، يمكن إرجاع التّعارض المزعوم بين الرّوحانيّة والمادّيّة إلى خصومة كلاميّة سوقيّة. وما يمثّل جوهر «البراغماتيّة» بكلّ أشكالها، هو اللامبالاة التّامة تجاه الحقيقة.

ذكر أنّ المعاصرين يحسبون الظروف الاقتصاديّة هي العوامل الوحيدة المُحرّكة للتاريخ. لذا، فقد ابتدعوا نظريّة تفسيرية تُسمّى بـ «المادّيّة التاريخيّة». وأكّد أنّ المجال الاقتصاديّ ليس كما يتمّ تصوّره على أنّه ميدان المبادلات التجاريّة التي تُحقّق العلاقات القائمة فيه تقاربًا وتفاهمًا بين الشعوب، ولكنه ميدان الصّراع

على المصالح. وأشار إلى أن الشرقيين إن تنافسوا مع الغرب اقتصادياً، فذلك بغية التخلص من الهيمنة الأجنبية التي لا تركز إلا على القوة المادية.

علّق على الذين يحسبون أن الغرب الحديث مسيحي، بالقول: إنّ العقل الحديث مُعادٍ للمسيحية؛ لأنه، جوهرى، مُعادٍ للدين؛ وهو مُعادٍ للدين؛ لأنه وبشكل أكثر عمومًا، مُعادٍ للتقليد. ولقد كان الغرب مسيحيًا في العصر الوسيط، لكنّه لم يعد كذلك؛ ولو قلنا: إنّه ما زال بإمكانه أن يعود كما كان، فلا أحد يرغب أكثر منّا في أن يكون الأمر كذلك.

الفصل الثامن: الاجتياح الغربي

أشار غينون إلى أن الفوضى الحديثة تمتدُّ إلى كل مكان، ويبدو أنّها قد بلغت حتى الشرق أيضًا. وذلك الاجتياح الغربي، الذي هو اجتياح المادية بجميع أشكالها، ليس بجديد، ولكن في السابق ظلت الحضارات التقليدية سليمة؛ لأنّ العقل الشرقي كان عصياً عن الاختراق. أمّا اليوم، وعلى العكس من ذلك، هناك شرقيون قد «تغربوا» وهجروا تقاليدهم ليتبنوا ضلالات العقل الحديث، ولو كانوا قليبي العدد.

إنّ المتأثرين بالعقل الغربي، وإن كانوا شرقيين بالولادة، يجب أن يُعدّوا غربيين من الجهة العقلية؛ لأنّ كل فكرة شرقية هي أجنبية عنهم بالكامل، ويبقى جهلهم بالعقائد التقليدية عذراً لهم الوحيد لعنائهم لها. فالعقلان المتعارضان كلاهما موجودان في الشرق، والقوة الروحية للتقليد، المستخفّ بها من قبل خصومها، يمكنها أن تهزم القوة المادية وأن تبدها كما يبده النور الظلمات، عاجلاً أم آجلاً. فالعقل التقليديّ يستحيل أن يموت؛ لأنه، في جوهره، مُتعالٍ عن الموت وعن التغيّر؛ لكن يمكن أن ينسحب كلياً من العالم الخارجي، وعندها ستكون فعلاً «نهاية العالم».

الفصل التاسع: بعض الاستنتاجات

اعتقد غينون، في هذا الفصل الأخير من الكتاب، أنه لو كان الناس يفهمون ما هو العالم الحديث حقيقة، فإنه سينتهي وجوده فوراً؛ لأنّ وجوده مثل وجود الجهل وكل شيء محدود، وإنه ليس إلا الإنكار للحقيقة التقليدية والمتعالية. وإذا ما

توصّلت النّخبة إلى التشكّل فسيكون بإمكانها الإعداد للتغيير والإسهام في حفظ ما يجب أن يبقى موجوداً ليُستعمل في بناء عالم الغد. واعتقد أنّ النّخبة موجودة في الحضارات الشرقيّة، وعلى الرّغم من أنّها تتضاءل أمام الاجتياح الحديث، إلّا أنّها ستبقى في النّهاية لحماية وديعة التقليد. وإنّ تلك النّخبة ستنجح في تذليل جميع العقبات. وإنه لا يوجد أيّ أمل بالوصول إلى نتيجة ملموسة قبل أن يغرق العالم الحديث في خضمّ كارثةٍ ما، وفي النّهاية، لا شيء سيغلب القوّة الحقيقيّة.